تجربة سعيد يقطين:

تمهيد:

يعد سعيد يقطين من الوجوه النقدية البارزة في الساحة النقدية العربية. وقد صدر له في هذا المجال مجموعة من الكتب المتميزة هي:"القراءة والتجربة"، "تحليل الخطاب الروائي"، "انفتاح النص الروائي"، "الرواية والتراث السردي"، "ذخيرة العجائب"، إضافة إلى كتابيه الكبيرين: "الكلام والخبر" و"قال الراوي". ومنذ انطلاقة د.سعيد يقطين التي تميزت بعمقها الفكري وبتمكنها من الأدوات المنهجية الدقيقة التي تقوم باستعمالها وهو يسعى لإقامة مشروع نقدي شامل، يختص بالمجال السردي دون سواه من الأوجه الإبداعية الأخرى، ذلك أن هذا المجال لا حدود له، فالسرد يشمل، كما يقول رولان بارت، مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية. ولقد كانت بداية هذا المشروع، لاسيما في كتابه الأول، أي "القراءة والتجربة" منصبة بالأساس على تفكيك بنية الرواية العربية الجديدة، ممثلة بالرواية المغربية تحديدا، وتبيان أهم صفاتها حيث نجد أنه قد توقف عند كل من الروايات التالية "الأبله والمنسية وياسين" للميلودي شغموم و"بدر زمانه" لمبارك ربيع، و"وردة للوقت المغربي" لأحمد المديني و"رحيل البحر" لمحمد عز الدين التازي.ولقد استطاع د. سعيد يقطين، في عمله النقدي هذا، أن يؤسس بالفعل الانطلاقة الدقيقة لهذا المشروع النقدي الهام والطموح جدا، إذ حدد فيها خصائص المنهج العلمي الذي يسعى لتوظيفه من أجل الاقتراب من عالم الروايات التي اختارها مجالا لدراسته. فهو قد قام بالبحث في مكونات الخطاب الروائي البنيوية المشكلة لهذه الروايات وهي مسألة لم يكن النقد العربي يعيرها اهتماما كبيرا في ذلك الوقت، مما يؤكد من جراءة هذه الخطوة النقدية الجادة التي قام بها والتأثيرات الكبرى التي خلفتها وراءها.

يعتمد مشروع سعيد يقطين على السرديات البنيوية، كما تجسدت وتبلورت من خلال الاتجاه البويطيقي، لتناول خصائص الطرائق المختلفة التي تقدم بها المادة الحكائية في السرد العربي أيضا ، إذ سنجد أنه سيتوقف عند بعض أهم الروايات العربية المشكلة له ولأشكال التعبير فيه. ويمكن الإشارة إليها على الشكل التالي: رواية "الزيني بركات" لجمال الغيطاني، ورواية "عودة الطائر إلى البحر" لحليم بركات، و"أنت منذ اليوم" لتسيير سبول، و"الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" لإميل حبيبي، وتوقفه هذا عند هذه الروايات سيشمل أهم المكونات التي ينبني عليها الخطاب فيها، والتي تتجلى في مكون الزمن ومكون الصيغة ومكون الرؤية السردية. ولقد انطلق في عملية بنائه لمشروعه النقدي هذا من تحديد دقيق لكل مكون من هذه المكونات الثلاثة، مستعرضا أهم الطروحات البويطيقية التي قامت بتعريفه، ومناقشا لما ورد فيها من قضايا، رابطا ذلك بالتصورات العربية القديمة حول كل مكون من المكونات، خالصا في النهاية إلى طرح الاقتراح الشخصي له مبينا أسباب تبنيه من الناحية العلمية والإجرائية، الشيء الذي يمنح لمجهوداته البحثية هاته، دقتها المنهجية وقدرتها على معالجة الموضوع الذي يتناوله، أي موضوع الخطاب.

الممارسة النقدية لدى سعيد يقطين:

تكمن أهمية المشروع النقدي عند د. سعيد يقطين في كونه مشروعا يتميز بانفتاحيته وقابليته لإجرائية التطور، مع محافظته على أهم الثوابت العلمية المشكلة له، وبالتالي تمثلت بالخصوص في الاشتغال على الخطاب ومختلف أبعاده النصية، لأنه هو "الموئل الأساس" لعلم السرديات من جهة، والرغبة في توسيع عملية تحليله بالاستفادة من نظريات النص وسوسيولوجيا النص الأدبي بكثير من المرونة، مستفيدا في هذا الجانب من أهم ما جاء به بيير زيما من طروحات، ومطورا في كثير من الحالات لها، عن طريق تفعيلها مع

النظرية التناصية كما حددها كل من جوليا كريستيفا ولورون جيني وجيرار جنيت وسواهم. ولقد تجلت مجهوداته البويطيقية هاته في كتابه ‘‘انفتاح النص الروائي’’ لتأخذ مداها الواسع في الكتاب الذي تلاها، أي كتاب ‘‘الرواية والتراث السردي’’. فبالنسبة للكتاب الأول، نجد انه قد تناول فيه مسألة النص الروائي والسياق الذي يتحكم فيه، حيث نجد أنه قد قام فيه بتعريف النص في شكله الشمولي مميزا بينه وبين الخطاب، متوصلا إلى كونه يشكل ‘‘بنية دلالية تنتجها ذات (فردية أو جماعية) ضمن بنية نصية منتجة، وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة’’، دون أن يفصله فصلا تاما عن الخطاب، على اعتبار أن هناك صلات وثيقة تربط بينهما تتجلى في كون الخطاب يشكل وظيفة تواصلية في مقابل النص الذي يشكل وظيفة نصية. ولقد ركز في دراسته للنص، انطلاقا من تحليله لمحتويه الداخلي والخارجي معا، على تحديد مختلف البنيات المتحكمة فيه، كالبنيات الزمانية والبنيات المجتمعية النصية، وأنواع التفاعل النصي ومستوياته، تأسيسا على هذا، يمكن اعتبار أن هذا الكتاب أي ‘‘انفتاح النص الروائي’’ تتميما وتطويرا لما ورد في كتاب ‘‘تحليل الخطاب الروائي’’ ما دام أن ‘‘الإسهام المركزي لدراسة يقطين، يميل نحو توسيع أفق اشتغال السرديات، وفهم ‘‘سردية الخطاب الحكائي’’ من خلال ثلاثة معايير متكاملة: الصيغة، السرد، الزمن’’ ، وقد تجلت عملية التوسيع هاته، في إدخاله لعنصر النص، كمفهوم مختلف، كما أوضحنا، عن الخطاب، ولمكون أساسي من مكونات الفعل السردي

زيادة على هذا العمل السيميوطيقي الهام، نجد أن د. سعيد يقطين في كتابيه هذين، قد فتح بابا جديدا في مشروعه النقدي الكبير هذا، هو باب ربط الإبداع السردي العربي الجديد بماضيه، أي بالتراث السردي العربي القديم الذي يتفاعل معه. فهو قد انطلق فيهما من تناول دراسة هذا الجانب، أي حضور الجنس الأدبي التراثي في الرواية العربية الحديثة، ومدى تأثيره في عملية تأطير بنيتها الروائية انطلاقا من تحليله لتمفصلات الرؤية السردية لرواية ‘‘الزيني بركات’’ للكاتب جمال الغيطاني من جهة أولى وللعلاقة القائمة داخلها بين الخطاب التاريخي وبين الخطاب الروائي من جهة ثانية، بهدف معاينة تميز خطاب الزيني بركات عن الخطاب التاريخي الذي افتح منه المادة التاريخية الذي اشتغل عليها،محددا في هذا الصدد خصائص كل شكل سردي منهما كما أنه قد قام بتحليل وتفكيك البنية المتحكمة في تمفصلات الرؤية السردية ذاتها في رواية تشكل إحدى أهم العلاقات الروائية البارزة في هذا التوج الفني الروائي وهي رواية ‘‘الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل’’ دون أن يقيم أي تعلق نصي بينها وبين أي نص سردي – تراثي، لأن الذي كان يهمه في هذا الصدد هو تحديد هذه الرؤية في علاقاتها بالناظم الخارجي والداخلي من جهة وباقي المكونات السردية الحاضرة في هذا النص الروائي من جهة أخرى. أما بخصوص كتابه ‘‘الرواية والتراث السردي’’ فهو يتمحور حول تحديد علاقة النص الروائي بتراثه السردي، كما يعلن عن ذلك في عنوان الكتاب ذاته، وهو يدرسها انطلاقا من رؤية شمولية تبتدئ من تحديد الرواية بالسرد القديم، ليصل بعد ذلك إلى تحديد علاقة الإنسان العربي بتراثه، بمعنى أنه ينطلق من نصية الرواية ليصل بعدها إلى نظرية النص في كليته.

في هذا الكتاب النقدي الهام، سنجد أن الباحث د. سعيد يقطين، سيوسع حتى أدوات اشتغاله، فهو إذا كان قد اشتغل في كتابه السابق ‘‘انفتاح النص الروائي’’ في دراسته للسرد الروائي بثلاثة أنواع من التفاعلات النصية، أي المناصة والتناص والميتانصية، فإنه هنا سيضيف إليها تفاعلا نصيا آخر هو المتعلق النصي. وسيقوم باعتماده لدراسة أربع روايات قد ارتكزت في عملية انبنائها على نصوص سردية قديمة وحاول أن تؤسس وجودها الخاص انطلاقا منها. وهي حتى وإن كانت تندرج ضمن إطار الجنس الروائي، فإن تعالقاتها النصية تتراوح بين أجناس سردية مختلفة، يمكن الإشارة إليها على الشكل التالي:1 ـ جنس التاريخ. 2 ـ جنس

الحكاية الشعبية.3 ـ جنس السيرة الشعبية.لينطلق هذا المشروع النقدي الهام نحو وجهة أخرى، نحو العودة إلى الماضي السردي العربي، لتفكيك بنياته، وإعادة صوغها وفق منهج إبستمولوجي أساسه السيميوطيقا في مختلف تجلياتها الكبرى وقد مهد د.سعيد يقطين لوجهة مشروعه هذا، بإصداره لكتابه ‘‘ذخيرة العجائب’’ الذي سيستحضر فيه كتابا سرديا قديما هو ‘‘سيرة سيف بن ذي يزن’’، وسيقوم بعملية فهرسته وفق أهم التصورات السردية الحديثة. وهو العمل ذاته الذي سيقوم بإنجازه في كتابيه ‘‘الكلام والخبر’’ و’’قال الراوي’’. في الكتاب الأول، أي ‘‘الكلام والخبر’’ الذي يحمل عنوانا ثانيا مميزا هو مقدمة للسرد العربي. يطرح د. سعيد يقطين قضايا بالغة الأهمية على مستوى البحث العلمي المتعلق بمجال السرديات العربية، إذ ينطلق فيه من إعادة قراءة مفهوم التراث في حد ذاته، لأنه يراه مفهوما دائما لا يستجيب لإجرائية العلمية الدقيقة ذلك أنه يشمل كل الآثار التي بقيت من عمران وعادات وتقاليد وذات صلة وثيقة بالحقب الماضية (ارتباط التراث بمفهوم الزمن) ومن الصعب حصره إذا نحن أخذناه انطلاقا من مفهومه المتشعب هذا. كما أن عملية حصره للدلالة على الأدب الذي كتب قبل عصر ما، اصطلح عليه بالنهضة العربية من أدب، فيه تبت كبير على باقي المآثر الفكرية وغير الفكرية التي أدخلت تحته من جهة. الحل العلمي لهذا الإشكال المعرفي تمثل، عند د. سعيد يقطين في البحث عن مفهوم جديد يعوض من جهة ويقتصر على الأنشطة الأدبية بمختلف تجلياتها فحسب، مفهوم يتجاوز هذا النوع الكبير الذي يشتمل عليه مفهوم التراث، كما يتجاوز الحصر الزماني والمكاني اللذين يخضع لهما أيضا، والدلالات الإيديولوجية التي يحملها.